# (4)

# القدس في قلب الرافعي

obeikandl.com

obeikandl.com

"بينـنا وبيـن الاسـتعمـار معركة نفسية،

إن لم يقتل فيها الهزل؛ قتل فيها الواجب"[1]

ظلت فكرة إقامة وطن لليهود في فلسطين حلمًا يراود الصهاينة في أرجاء العالم المختلفة، حتى إن حركة (عشاق صهيون) التي تأسست عام 1880 كان من أهم أهدافها وأوضحها إقامة وطن يجمع كل اليهود، ويستنقذهم من الاضطهاد الذي يتعرضون له على حد قولهم.

ثم كان المؤتمر الصهيوني الأول برئاسة (تيودور هرتزل) في مدينة بازل السويسرية في 29 أغسطس 1897 بحضور عدد من المندوبين والمراقبين (من 200 – 250) أغلبهم أعضاء في حركة (عشاق صهيون)، وقد أقرَّ هرتزل في خطاب الافتتاح أن هدف المؤتمر الأول هو التأسيس لوطن قومي لليهود يجمعهم من شتات في (فلسطين) وليس في (الأرجنتين) أو (أوغندا) بسبب من الارتباط التاريخي لليهود بالقدس، وأكَّد أن الإشكالية اليهودية لا يمكن حلها من خلال التوطُّن البطيء؛ لأن ذلك يستغرق وقتًا طويلًا وقد لا يأتي بالنتائج المرجوة، وإنما

(1) وحي القلم، ص 549.



Obeikandi.com

يكمن الحلُّ في الدخول في مفاوضات سياسية والحصول على ضمانات دولية واعترافات قانونية من الدول الكبرى كبريطانيا وفرنسا وروسيا وأمريكا، حتى يكون ذلك بمثابة تصريح عالمي للمشروع الاستيطاني من قبَل الدول الكبرى.

حدد المؤتمرون- أو المتآمرون - ثلاثة محاور يمكنهم من خلالها تحقيق هدفهم في إنشاء وطن يجمع شتاتهم، وهذه المحاور هي:

1 - تنمية وعي اليهود في أنحاء العالم بقضية الوطن القومي في فلسطين، فبدون ذلك لن يتمكنوا من بناء وطن لهم ما لم يبذل الجميع وسعه في سبيل ذلك.

2 - تشجيع استيطان فلسطين بالعمال الزراعيين، ومن ثَمَّ التحكم في اقتصاد فلسطين الذي يقوم في أساسه على الزراعة، ومما يؤثر عن هرتزل قوله:" ستحل المشكلة اليهودية يوم يقوى اليهودي على قيادة محراثه بيده"[1]

3 - السعي إلى حشد التأييد الدولي لإقامة المشروع الاستيطاني الصهيوني.

وقد كان لهرتزل ما أراد؛ فقد تمخَّض عن ذلك المؤتمر إقامة (المنظمة الصهيونية العالمية)، وأوصى المؤتمر إجمالًا بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين يضمنه القانون العام.

(1) راجع: مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني (مذكراتي السياسية 1891 - 1908)، ص 34.

وفي العام 1916 عقدت بريطانيا وفرنسا اتفاقًا سريًّا - برعاية روسية - على اقتسام العراق والشام بينهما، وأن تكون فلسطين تحت إدارة دولية باستثناء صحراء النقب، وفي العام التالي 1917 أصدر وزير الخارجية البريطاني (أرثر بلفور) وعدًا مشؤومًا باسم ملك بريطانيا لزعماء الصهاينة بإقامة وطن لهم في فلسطين، وبذلك أعطى من لا يملك الحق لمن لا يستحق.

وأمام هجرات اليهود المتزايدة إلى فلسطين، وفي ظل الدعم الغربي لهذا الكيان الجديد؛ قامت الثورات الشعبية الفلسطينية لمواجهة المحتل واسترداد الأرض في عامي 1920، و1921، كما قامت ثورة البراق في عام 1929، ثم الثورة الكبرى التي انطلقت في أرجاء فلسطين بعد استشهاد عز الدين القسامي على أيدي جنود الاستعمار البريطاني سنة 1936، واستمرت حتى العام 1939.

## الرافعي والقضية الفلسطينية

أما الرافعي فلم يك بمعزل عن القضية الفلسطينية وأحداثها؛ بل كان عنصرًا فاعلًا بكتاباته في خدمة هذه القضية المحورية في العالمين العربي والإسلامي، فبالتزامن مع ثورة الفلسطينيين سنة 1936 كتب ثلاثة مقالات في (مجلة الرسالة) داعمًا لحق الفلسطينيين في الدفاع عن أرضهم من منطلق إسلامي بحت، ثمَّ أعاد نشرها في سِفْرِه (وحي القلم)، وهو جماع

ما كتب عن القضية الفلسطينية- حسب ما وصل إلينا من كتاباته، وهذه المقالات- حسب ترتيب النشر - هي:

- يا شباب العرب[1]
- في محنة فلسطين.. أيها المسلمون[2]
- قصة الأيدي المتوضئة[3]

ويبدو أن مقالات الرافعي جاءت ضمن حملة إعلامية كبيرة قامت بها (مجلة الرسالة) بداية من العدد (153) الصادر بتاريخ 8 يونيو 1936، والذي تضمن مقالًا تحت عنوان (المأساة الفلسطينية) لشخص مجهول اكتفت المجلة بوصفه بـ(باحث دبلوماسي كبير).

ثم في العدد (154) الصادر في 15 يونيو قصيدة بعنوان (يا فلسطين) لشاعر سمى نفسه (أبو سلمى)، كما احتوى العدد (156) بتاريخ 29 يونيو مقالًا للأستاذ (علي الطنطاوي) تحت عنوان (حادثة فلسطين)، ثم نشرت مناشدة في العدد (161) في 3 أغسطس تحت عنوان (فلسطين تناشد العالم الإنساني).

(1) راجع: الصفحة الأولى من مجلة الرسالة، العدد 154، 15 يونيو 1936، وعنوانها الأصلي (محنة فلسطين: أيها المسلمون).

(2) انظر: الصفحة الأولى من مجلة الرسالة، العدد 155، 22 يونيو 1936.

(3) راجع: مجلة الرسالة، العدد 157، 6 يوليو 1936.



obeikandl.com

ولقد آتت هذه الحملة بعض أُكلها؛ حيث نشرت المجلة في العدد (162) بتاريخ 10 أغسطس تقريرًا تحت عنوان (عطف المسلمين على منكوبي فلسطين)، يُفيد أن بعض قراء المجلة بمدينة (تلمسان) الجزائرية قد ألَّفوا جمعية لإغاثة منكوبي فلسطين، وجمعوا مبلغًا كبيرًا من المال أرسلوه إلى حساب المجلة لتوصيله إلى فلسطين.

وكان من بين هذه المقالات التي تناولت قضية فلسطين ما كتبه الرافعي – على النحو الذي ذكرنا آنفًا – وبلغ من اهتمام المجلة بما يكتبه الرافعي في هذا الإطار أن صدَّرت في صفحتها الأولى مقالين من الثلاثة، وهما: (يا شباب العرب)، و(في محنة فلسطين.. أيها المسلمون!!).

ولقد كان الرافعي مؤمنًا إيمانًا قويًّا بأن قضية القدس ليست محنة فلسطين وحدها،" ولكنها محنة الإسلام. يريدون ألا يثبت شخصيته العزيزة الحرة"[1]، وهذا يعني أنه لم يكن ينظر إلى القضية نظرة قومية عروبية ضيقة تجعل فلسطين قضية للعرب دون غيرهم من المسلمين الذين تفيض بهم أرجاء العالم؛ ولكنها نظرةٌ أعمُّ وأشمل تضع في حسبانها ما للقدس من منزلة وفضائل لدي المسلمين قاطبة.

(1) انظر: مقال "في محنة فلسطين: أيها المسلمون"، وحي القلم، ص 558.

**ولم لا؟!**

**أليست القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين ومسرى نبيهم؟!**

والرافعي إذْ يكتب لا تحكمه لغة العاطفة فقط؛ بل تحكمه لغة العقل والمنطق؛ فنراه يناقش اليهود مُفنِّدًا أكاذيبهم؛ من ذلك ما روجوه عن اضطهادهم في بلاد العالم؛ حيث" يقول اليهود: إنهم شعب مضطهد في جميع بلاد العالم، ويزعمون: أن مِن حقهم أن يعيشوا أحرارًا في فلسطين، كأنها ليست من جميع بلاد العالم... ولكن لماذا كنستكم كل أمة من أرضها بمكنسة أيها اليهود؟!"[1]، فالواقع أن اليهود لم يكن مرغوبًا فيهم بأي حال من الأحوال، لا في أمريكا ولا في ألمانيا، ولا في غيرها من بلاد العالم بسبب من تآمرهم وعدم ولائهم للأوطان التي تؤويهم وتحتضنهم.

وعندما ثارت فلسطين كان الرافعي قريبًا منهم في مصر يمتشق قلمه، ويشدد أزر المجاهدين الذين يرومون تحرير أوطانهم من المحتل الصهيوني المغتصب، وهو ما عبَّر عنه بقوله:" نهضَتْ فلسطينُ تحل العقدة التي عقدت لها بين السيف، والمكر، والذهب. عقدة سياسية خبيثة، فيها لذلك الشعب الحر قتل، وتخريب، وفقر. عقدة الحكم الذي يحكم بثلاثة أساليب: الوعد الكذب، والفناء البطيء، ومطامع اليهود المتوحشة"[2].

(1) نفسه، ص 559.

(2) وحي القلم، ص 558.

إن الاستيطان الصهيوني - كما يرى الرافعي - قد تحقق في فلسطين بسبب من قوة السيف المفرطة، ومكر اليهود ودهائهم الذي توارثوه عبر التاريخ، والدعم المالي الذي رصدوه في سبيل تحقيق أهدافهم الخبيثة في ظل سبات المسلمين الذين فرقتهم (سايكس بيكو).

## في مواجهة العدو

لقد ركَّز على عدة عوامل يراها الحاسمة في مواجهة الصهاينة، وحمل نداؤه:" أيها المسلمون! كونوا هناك. كونوا هناك مع إخوانكم بمعنًى من المعاني" تنوعًا في وسائل المساعدة للقضية الأم. من هذه الوسائل:

1) **الجهاد بالنفس:**

خاطب أبوالسامي نخوة المسلمين وضمائرهم لنجدة إخوانهم في فلسطين وإنقاذهم من براثن اليهود الذين لم يدخروا وسعًا في تهويد القدس وبناء المستعمرات وتشييد المستوطنات، فنراه تارة يُذكِّرهم بأمجاد المسلمين الفاتحين الذين ضحوا بحياتهم لرفعة الدين وإعلاء رايته، كقوله:" يا شباب العرب! كانت حكمة العرب التي يعملون عليها: اطلب الموت تُوهب لك الحياة"[1].

(1) نفسه، ص 550.

إنه هنا يتمثل المقولة الخالدة للخليفة الأول لرسول اللهﷺ أبي بكر الصديق رضى الله عنه للقائد المسلم خالد بن الوليد رضى الله عنه:" احرص على الموت تُوهب لك الحياة"؛ وهو ما كان من ابن الوليد الذي ظل يقاتل طيلة حياته، ولا يخرج من معركة إلا إلى أخرى، وما هُزم في واحدة قط.. حتى كانت نهايته على فراشه، لا شهيدًا في معركة!!

إن النفس- كما يقول الرافعي -:" إذا لم تخش الموت كانت غريزة الكفاح أول غرائزها تعمل. فللكفاح غريزة تجعل الحياة كلها نصرًا، إذْ لا تكون الفكرة معها إلا فكرة مقاتلة. وغريزة الكفاح هي التي جعلت الأسد لا يسمن كما تسمن الشاة للذبح. وإذا انكسرت هذه الغريزة يومًا، فالحجر الصلد إذا ترضرضت منه قطعة كانت دليلًا يكشف للعين أن جميعه حجرٌ صلدٌ"[1]، إنَّه يشحذ الهمم لمواجهة المحتل المغتصب دون هيبة ولا خوف؛ لأن صاحب الحق قوي بعقيدته وباستعداده للتضحية بحياته، على عكس المحتل الذي يهاب الموت ويحرص على الحياة حتى النَّفس الأخير.

**2) استعادة الثقة:**

إن إعداد النفس وتهيئتها للمعركة أمرٌ أساسٌ ومحوري، فالمعركة كما يقول:" بيننا وبين الاستعمار معركة نفسية، إن لم يُقتل فيها الهَزْلُ؛ قُتل

(1) نفسه، ص 550 – 551، بتصرف يسير.

فيها الواجب"[1] ولقد كان يرى أن الشباب هم عماد الأمة التي يقوم عليها الحاضر وينبني المستقبل؛ ولذا وجه حديثه إلى الشباب في مقال أنشأه إبَّان ثورة فلسطين سنة 1936التي أشرنا إليها، فنراه يُذَكِّر شباب العرب بأنه لم يكن العسير يعسر على أسلافهم الأولين؛ لأنهم" ارتفعوا فوق ضعف المخلوق، فصاروا عملًا من أعمال الخالق، غلبوا على الدنيا لما غلبوا في أنفسهم معنى الفقر، ومعنى الخوف، والمعنى الأرضي، وعلمهم الدين كيف يعيشون باللذات السماوية التي وضعت في كل قلب عظمته وكبرياءه. واخترعهم الإيمان اختراعًا نفسيًّا، علامته المسجلة على كلٍّ منهم هذه الكلمة: لا يُذَل"[2]، فالسر في الإيمان الذي يملأ القلب فيطرد منها الخوف والتشبث بأهداب الحياة الفانية، فلأن يحوز المرء الشهادة خير له من أن يعيش مسلوب الحرية في وطنه.

إن الإنسان بإمكانه أن يغني نفسه ويقويها ليكون مهاب الجانب غير منكسر، ويكون ذلك من خلال العمل الطيب، فالفقر عندما يكون هو" قلة المال، يفتقر أكثر الناس، وتنخذل القوة الإنسانية، وتهلك المواهب. ولكن حين يكون فقر العمل الطيب، يستطيع كل إنسان أن يغتني، وتنبعث القوة

(1) وحي القلم، ص 549.

(2) نفسه، ص550.

وتعمل كل موهبة. وحين يكون الخوف من نقص هذه الحياة وآلامها، تفسر كلمة الخوف مائة رذيلة غير الخوف. ولكن حين يكون نقص الحياة الآخرة وعذابها، تصبح الكلمة قانون الفضائل أجمع. هكذا اخترع الدين إنسانه الكبير النفس الذي لا يقال فيه: انهزمت نفسه"[1]، إنه معنى آخر للفقر غير المعنى المادي الشائع في أذهان الناس، فالمرء يمكنه أن يأخذ بأسباب الغنى المادي ورغم ذلك لا يغتني، أما إذا أخذ بأسباب غنى النفس وثراء الخُلُق فإنه سيغتني حتمًا.

وفي ذات رسالته إلى الشباب يُذكّرهم بمواطن العظمة وبواعث القوة في دينهم الحنيف، منها أن:

"الإسلام قوة كتلك التي توجد الأنياب والمخالب في كل أسد. قوة تخرج سلاحها بنفسها؛ لأن مخلوقها عزيز لم يُوجد ليؤكل، ولم يُخلق ليُذل. قوة تجعل الصوت نفسه حين يزمجر، كأنه يعلن الأسدية العزيزة إلى الجهات الأربع. قوة وراءها قلب مشتعل كالبركان، تتحول فيه كل قطرة دم إلى شرارة دم، ولئن كانت الحوافر تهيئ مخلوقاتها ليركبها الراكب، إن المخالب والأنياب تهيئ مخلوقاتها لمعنى آخر"[2]، فالمعركة تحتاج فيما

(1) نفس الموضع، بتصرف يسير.

(2) وحي القلم، 559 – 560.

تحتاج إلى تجديد الثقة بالنفس، وطرد وساوس الخوف التي سيطرت على العرب والمسلمين، فلا يمكن لهم بحال أن يتغلَّبوا على عدوهم إلا بعد التغلُّب على أنفسهم التي بين جنبيهم، فنفس المؤمن لا تنهزم أبدًا؛ لأنها تستمد قوتها من قوة الله العليِّة.

3) **الجهاد بالمال:**

تنبَّه الرافعي مبكرًا إلى أهمية المال كعنصر محوريٍ وأساسٍ في قيام الكيان الصهيوني، وهو الأمر الذي تشي به مقالاته في هذا الإطار، فقد أوضح في غير موضع أن الكيان الصهيوني قام على بذل وتضحيات مالية من جموع الصهاينة في العالم، وكانت الإغراءات المادية بمثابة العماد الذي تأسَّست عليه مستعمراته، يقول عن الصهاينة:" وقد صنعوا للإنجليز عظيمًا لا يسبح في البحار؛ ولكن في الخزائن"[1]، ويقول في موضع آخر مخاطبًا ضمائر الشرق ونخوته: "أيها الشرقي! إن الدينار الأجنبي فيه رصاصة مخبوءة، وحقوقنا مقتولة بهذه الدنانير"[2].

وتذكر المصادر التاريخية أنَّ (هرتزل) حاول إغراء السلطان العثماني (عبد الحميد الثاني 1842 – 1918) سنة 1896 برشوة تبلغ نحو مائة

(1) نفسه، ص 559.

(2) نفسه، ص 549.

وخمسين مليون ليرة ذهبية، فضلًا عن سداد جميع الديون المستحقة على الدولة العثمانية، ووعد ببناء أسطول بحري جديد بتكلفة إجمالية نحو 120 مليون ليرة، وقرض بدون فوائد خمسة وثلاثون مليون ليون ليرة لإنقاذ الخزانة العثمانية من الإفلاس، ووعد آخر ببناء جامعة عثمانية في القدس الشريف؛ لكن كل هذه الإغراءات لم تفلح مع السلطان العثماني الذي رد بقوله:" لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين، فهي ليست ملك يميني؛ بل ملك الأمة الإسلامية.. وإني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة" [1].

ولذلك فليس المستغرب أن يُفرد الرافعي مقالين يدعو فيهما المسلمين إلى التبرع بأموالهم لإنقاذ فلسطين من أيدي الصهاينة، مؤكِّدًا أن" كل قرش يدفع لفلسطين، يذهب إلى هناك ليجاهد هو أيضًا.. وليفرض على الساسة احترام الشعور الإسلامي.. وليتكلم كلمة ترد إلى هؤلاء العقل.. ليثبت الحقيقة التي يريدون طردها"[2]

(1) يُراجع موقف السلطان عبدالحميد الثاني من اليهود في المصادر الآتية: رفيق النتشة: السلطان عبدالحميد الثاني وفلسطين ص 176 وما بعدها. والدكتور حسان حلاق: دور اليهود والقوى الدولية في خلع السطان عبدالحميد الثاني عن العرش، ص 10. وموفق بني المرجة: صحوة الرجل المريض أو السلطان عبدالحميد الثاني، ص 213 وما بعدها.

(2) وحي القلم، ص 558 – 559 بتصرف.

وبأسلوب بياني بليغ يستعطف عموم المسلمين، ويخاطب فيهم الضمير الإنساني، والرباط الإسلامي المتين، فيتساءل:" أيجوع إخوانكم أيها المسلمون وتشبعون؟! إن هذا الشبع ذنب يعاقب الله عليه، والغني اليوم في الأغنياء الممسكين عن إخوانهم، وهو وصف الأغنياء باللؤم لا بالغنى، كل ما يبذله المسلمون لفلسطين، يدل دلالات كثيرة، أقلها سياسة المقاومة، كان أسلافكم أيها المسلمون يفتحون الممالك؛ فافتحوا أنتم أيديكم، كانوا يرمون بأنفسهم في سبيل الله غير مكترثين؛ فارموا أنتم في سبيل الحق بالدنانير والدراهم"[1]

لقد كان الرافعي عمليًّا فيما يدعو إليه، يبحث عن الحلول الناجعة، فلم يكتفْ بالكلام والعبارات الرقراقة الفضفاضة، ولا بإثارة الشجون واستدرار الدموع؛ إنما قام بطرح مبادرة تتضمن صيام المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يومًا واحدًا، والتبرع بنفقاته لتجهيز المجاهدين، يقول:" لو صام العالم الإسلامي كله يومًا واحدًا وبذل نفقات هذا اليوم الواحد لفلسطين؛ لأغناها. لو صام المسلمون كلهم يومًا واحدًا لإعانة فلسطين؛ لقال النبي مفاخرًا الأنبياء: هذه أمتي. لو صام المسلمون جميعًا يومًا واحد لفلسطين؛ لقال اليهود اليوم ما قاله آباؤهم من قبل: إن فيها قومًا

(1) نفسه، ص 560.

جبارين!! أيها المسلمون، هذا موطن يزيد فيه معنى المال المبذول فيكون شيئًا سماويًّا. كل قرش يبذله المسلم لفلسطين، يتكلم يوم الحساب يقول: يا رب، أنا إيمان فلان"[1]

إن إيمان الرافعي بقضية فلسطين جعلته مهمومًا بها، يستحث من حوله من المسلمين ليدافعوا عن أرضهم، ويذودوا عن أعراضهم المنتهكة في فلسطين، وقبل هذا وذاك عن مسرى نبيهم وقبلتهم الأولى التي دنسها اليهود.

## الأيدي المتوضئة

فضلًا عن أن هذا المقال القصصي تناول وجوب الدعم المادي للقضية الفلسطينية؛ فإنه ركز أيضًا على عدة قضايا أخرى، منها أهمية التربية المسجدية ودورها في التوعية بقضايا المجتمع، وموقف المشايخ والدعاة وكذا المؤسسة الدينية من القضية الفلسطينية، كما تضمن المقال نقدًا لاذعًا للخطاب الديني السائد في ذلك الوقت.

ويحكي هذا المقال قصة على لسان الراوي الذي حضر خطبة الجمعة في المسجد الأحمدي بمدينة طنطا سنة 1936م[2]، وكيف أن الخطيب قد شرَّق وغرَّب دون أن يهتم بما يجري حوله من أحداث عظام تشيب لها رؤوس الولدان،

(1) نفسه، ص 561.

(2) راجع: مجلة الرسالة العدد 157، بتاريخ 6 يوليو 1936.

يقول الرافعي على لسان الراوي: "وصعد الخطيب المنبر وفي يده سيفه الخشبي يتوكأ عليه؛ فما استقر في الذروة حتى خُيِّل إليَّ أن الرجل قد دخل في سر هذه الخشبة، فهو يبدو كالمريض تُقيمه عصاه، وكالهرم يمسكه ما يتوكأ عليه؛ ونظرت فإذا هو كذبٌ صريحٌ على الإسلام والمسلمين، كهيئة سيفه الخشبي في كذبها على السيوف ومعدنها وأعمالها. وتالله ما أدري كيف يستحل عالم من علماء الدين الإسلامي في هذا العصر، أن يخطب المسلمين خطبة جمعتهم وفي يده في هذا السيف علامة الذل والضعة والتراجع والانقلاب والإدبار والهزل والسخرية والفضيحة والإضحاك؛ ومتى كان الإسلام يأمر بنجر السيوف من الخشب ونحتها وتسويتها وإرهاف حدِّها الذي لا يقطع شيئًا، ثم وضعها في أيدي العلماء يعتلون بها ذؤابة كل منبر، لتتعلق بها العيون، وتشهد فيها الرمز والعلامة، وتستوحي منها المعنوية في الدينية التي يجب أن تتجسم لترى؟! أفي سيف من الخشب معنوية غير معنى الهزل والسخافة، وبلاهة العقل وذلة الحياة، ومسخ التاريخ الفاتح المنتصر، والرمز لخضوع الكلمة وصبيانية الإرادة؟ قال: وكان تمام الهزء بهذا السيف الخشبي الذي صنعته وزارة أوقاف المسلمين، أنه في طول صمصامة عمرو بن معد يكرب الزبيدي فارس الجاهلية والإسلام، فكان إلى صدر الخطيب، ولولا أنه في يده لظهر مقبضه في صدر الرجل كأنه وسام من الخشب"[1]

(1) وحي القلم، ص 562 – 563.

إنَّ الرافعي يبحث عن القوة الحقيقية الكامنة في تعاليم الإسلام، وينادي بضرورة الاستعداد للمعركة والأخذ بأسباب النصر، ومن ثم يعيب على الخطيب أن يتوكأ على سيف خشبي هزيل لا يرد ضيمًا، ولا يستعيد حقًّا، ولا يدافع عن حرمة، ولا يذود عن عِرض، ولو كان طويلًا منجورًا.

إن الخطبة- كما يرى أبوالسامي - لابد أن تكون مرآة للمجتمع، "فما يريد الإسلام إلا أن تكون كمحطات الإذاعة، يلتقط كل منبر أخبار الجهات الأخرى ويذيعها في صيغة الخطاب إلى الروح والعقل والقلب، فتكون خطبة الجمعة هي الكلمة الأسبوعية في سياسة الأسبوع أو مسألة الأسبوع، وبهذا لا يجيء الكلام على المنابر إلا حيًّا بحياة الوقت؛ فيصبح الخطيب ينتظره الناس في كل جمعة انتظار الشيء الجديد؛ ومن ثَمَّ يستطيعُ المنبرُ أن يكون بينه وبين الحياة عمل"[1]

ثم يورد - في مقارنة بليغة - موقفًا إيجابيًّا لشاب من شباب الحركة الإسلامية آنذاك، وهو الشاعر والأديب عبدالحكيم عابدين (1914 - 1976)، حيث قام في الناس خطيبًا عقب الصلاة يدعوهم إلى التبرع لصالح فلسطين، يقول الراوي:" ولما قُضيت الصلاة ماجَ الناس إذْ انبعث فيهم جماعة من الشبان يصيحون بهم يستوقفونهم ليخطبوهم؛ ثم قام أحدهم فخطب، فذكر فلسطين وما نزل بها،

(1) وحي القلم، ص 564 - 565.

وتغيُّرَ أحوال أهلها، ونكبتهم وجهادهم واختلال أمرهم، ثم استنجد واستعان، ودعا الموسر والمخف إلى البذل والتبرع وإقراض الله تعالى؛ وتقدم أصحابه بصناديق مختومة، فطافوا بها على الناس يجمعون فيها القليل والأقل من دراهم هي في هذه الحال دراهم أصحابها وضمائرهم"[1].

ويسوق المقال صورتين من ردود فعل المصلين بالمسجد، فمن الناس مُنفقٌ مؤمنٌ بأن المال مالُ الله، وأنه مستخلفٌ مِن الله- عزَّ وجلَّ - فيه، وضرب مثلًا بذلك الرجل القروي البسيط الذي أخرج كيسه" فعزل منه دراهم، وقال: هذه لطعام أتبلغ به ولأوبتي إلى البلد، ثم أفرغ الباقي في صناديق الجماعة؛ واقتديت أنا به فلم أخرج من المسجد حتى وضعت في صناديقهم كل ما معي؛ ولقد حسبت أنه لو بقي لي درهم واحد لمضى يسبُّني ما دام معي إلى أن يخرج عني"[2]

ويصور في مشهد تمثيلي مشوق كيف ضنَّت نفوس البعض بالمال على مساعدة المنكوبين من أهالي فلسطين، وكيف امتلأ الصندوق بالكلمات المعسولة دون الدراهم.. إنه حب الدنيا عندما يتمكَّن من النفس؛ فتشح بالقليل!! يقول الراوي:" ثم تحركت النفس بوحي الحالة؛ فمدَّ أولُهُم يده

(1) نفسه، ص 564.

(2) نفسه، ص 565.

إلى جيبه، ثم دسَّها فيه، ثم عيَّث فيه قليلا؛ ثم... ثم أخرج الساعة ينظر فيها. وانتقلت العدوى إلى الباقين، فأخرج أحدهم منديله يتمخَّط فيه، وظهرت في يد الثالث سبحة طويلة، وأخرج الرابع سواكًا فمرَّ به على أسنانه، وجرَّ الخامس كراسة كانت في قبائه، ومدَّ صاحب اللحية العريضة أصابعه إلى لحيته يخللها؛ أما السابع صاحب اللا لحية، فثبتت يده في جيبه ولم تخرج، كأن فيها شيئًا يستحيي إذا هو أظهره، أو يخشى إذا هو أظهره من تخجيل الجماعة. وسكت الشاب، وسكت الشيوخ، وسكت الصندوق أيضًا.. فخجل الشاب وحمل صندوقه ومضى"[1]

ويُذكِّر الرافعي بحديث النبيﷺ:"... ولجاهل سخي أحب إلى الله من عالم بخيل"[2]، ليستحث علماء المسلمين على البذل والعطاء ليكونوا نموذجًا يُحتذى به بين الناس، وليؤكِّد أنَّ العلماء هم ورثة الأنبياء؛ ومن ثَمَّ عليهم أن يكونوا على قدر المسئولية، على قدر هذا التشريف.

أما عن موقف الرافعي من الصهاينة بشكل عام فقد تناوله في مقال آخر – لمز به مصطفى كمال أتاتورك الذي أسقط الخلافة الإسلامية بالتعاون مع (يهود الدونما) – تحت عنوان (تاريخ يتكلم) بمجلة الرسالة (أول أبريل

(1) نفسه، ص 567.

(2) رواه الترمذي في الجامع.

سنة 1935، العدد رقم 91)، جمع المقال الوعي بالواقع وبين التاريخ والإبداع، وجاء في قالب (فانتازي) مشوق؛ حيث تخيل نفسه وقد عادت به آلة الزمن إلى الوراء فالتقى الخليفة الفاطمي (الحاكم بأمر الله) المعروف بطغيانه واستبداده ودار بينهما حوار طويل.

يوازن الرافعي بين (أتاتورك) و(الحاكم بأمر الله)، ويقول إن أصلهما يهوديٌّ صِرفٌ، وبالتالي فلا عجب أن يكون الأول مُلهمًا للثاني، ويكون الثاني نسخة مكررة من الأول في طغيانه واستبداده، يقول عن الحاكم بأمر الله قاصدًا أتاتورك:" ابتلي هذا الطاغية بنقيصتين: إحداهما من نفسه، والأخرى من غيره، فأما التي من نفسه فإني أراه قد خلق وفي مُخِّه لفافة عصبية من يهودية جده رأس هذه الدعوة؛ فهو الحاكم بن العزيز بن المعز بن القاسم المهدي عبيد الله، ويقولون: إن عبيد الله كان ابن امرأة يهودية من حداد يهودي، فاتفق أن جرى ذكر النساء في مجلس الحسين بن محمد القداح، فوصفوا له تلك المرأة اليهودية، وأنها آية في الحسن، وكان لها من الحداد ولد، فتزوجها الرجل وأدب ابنها وعلمه، ثم عرفه أسرار الدعوة العلوية وعهد إليه بها. ومن بعض اللفائف العصبية في المخ ما ينحدر بالوراثة مطبوعًا على خيره أو شره، لا يد للمرء فيه ولا حيلة له في دفعه أو الانتفاء منه، فيكون قدرًا يتسلسل في الخلق ليحدث غاياته المقدورة، فمتى

وقع في مخ الإنسان فالدنيا به كالحبلى ولا بد أن تتمخض عنه"[1]

إن الرافعي يرى أن ما يقوم به (أتاتورك) من مسخ لتعاليم الإسلام واضطهاد المسلمين بإيعاز من (يهود الدونما) هو نتيجة حتمية؛ لأن اللفافة اليهودية أو (الجينات اليهودية) تجعله يقبل على هذا الأمر في نشوة، يقول:" هذه اللفافة اليهودية في مخ هذا الطاغية ستحقق به قول الله تعالى: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ**﴾ [المائدة: 82] فهو لن يكون العدو للإسلام دون أن يكون الأشد في هذه العداوة، ولن يكون فيها الأشد حتى يفعل بها الأفاعيل المنكرة. وما أرى هذه المآذن القائمة في الجو إلا تخرق بمنظرها عينه من بغضه للإسلام وانطوائه على عداوته، فويل لها منه"[2]

وهكذا كان أدب الرافعي مرآة صادقة لثقافته، وجزءًا لا يتجزأ من عقيدته الراسخة، من ذلك انشغاله بقضية فلسطين والقدس الشريف باعتبارها قضية المسلمين الأولى، ومن ثم أطلق صيحات التحذير من تخلي المسلمين عن قبلتهم الأولى ومسرى نبيهم الكريم ﷺ، ولو استمع المسلمون نصيحته لتغير الحال، ولما بقيت فلسطين أسيرة الصهاينة يفعلون بأهلها الأفاعيل.

(1) وحي القلم، ص 532

(2) وحي القلم، ص 532 – 533.